القصص

رجل ... وامرأة

بقلم محمد سعيد العريان

— ١ —

جلس شوكت افندى كاظم فى حجرة الانتظار بمدرسة ... يجيل طرفه فى قطع الأثاث المبعثرة ، وينقل النظر بين السقف والأرض والحيطان . لم يتغير شىء فيها عما رآه لآخر مرة منذ سنوات أربع ؛ هذا النضد الصغير فى زاوية الحجرة كأنه قطعة من أرض المكان فلم يتزحزح عن موضعه ؛ وهذه الأريكة الكبيرة طالما تمدد عليها ولوى ذراعيه تحت رأسه وسبح فى أحلام اليقظان ؛ وهذه الصور على الحيطان تطل منها الوجوه الصغيرة ، فى أساريرها مرح الطفولة ، وفى عينيها بريق الأمل — إنها فى موضعها حيث صففها بيديه قبل سنين ، ولكنها زادت أخرى ، لا شك أنها صور الفرق التى أتمت دراستها بالمدرسة منذ نقل منها ... ودفعه حنين وشوق فنهض يتأمل صور تلاميذه الذين عاش بينهم شطراً من حياته فى منزلة الأب الثانى ، ثم فارقهم وفارقوه منذ سنين بعيدة فوجاً بعد فوج الى حيث لا يدرى من فجاج الحياة . ما أسرع ماتمر السنون ! أيهم الآن يذكره كما يذكرهم ؟ لعل منهم صاحب المنصب الرفيع والجاه العريض وهو مايزال حيث تركوه فى منصبه وجاهه ! ... ووقف لدى صورة من عديد الصور المعلقة ، ولم ينتقل عنها ولم يخفض بصره ؛ لقد طافت برأسه ذكريات من الماضى ، ذكريات حيّة ما يزال قلبه بدمها ينزف . وحدق فى الصورة طويلاً تحديق العانس فى المرآة تنعى الشباب وتتهم الزمن ... منذ ثمان سنوات حين دُعى ليجلس بين تلاميذه فى هذه الصورة كان شخصاً آخر غير الشخص الذى يعيش اليوم ، لقد كان يومئذ يعيش فى وادٍ من الأحلام : أحلام الشباب والمرأة والحب . أين هو اليوم مما كان ؟ أما الشباب فقد أنهكته أحداث الزمن ، وأما الحب فقد دفنه هناك ولفّه فى أكفان اليأس ، وأما هى ...

ودخل الضابط يحييه بصوت غليظ ، فى يده عصا ومن ورائه غلام . واندفع عادل شوكت الى أبيه حين رآه باسطاً ذراعيه ، فلم يخش عصا الضابط ولا صوته البغيض ؛ وضم الرجل ولده الى صدره ومال عليه يقبله فى ظمأ وشوق ؛ وطأطأ الولد رأسه يعبث بأزرار معطف أبيه ويداعب سلسلته ؛ وسبح أبوه فى ذكريات ينشرها ويطويها :

لقد كان يحبها أعنفَ الحب وأرقّه ، ولم يكن يتمنى غير أن يظفر بها زوجاً يُصفيها الحب ويخلص لها الوداد ؛ وقد ظفر بها ونالها ، فأين هو اليوم من سعادة الحياة ؟ ! لقد أفلتها فلم يبق بين يديه من تلك المنى الساحرة غير لمحة ضئيلة يراها فى عينى هذا الغلام.

وعاد الى الماضى يسترجع ساعاته ولياليه ، ويحصى على الزمن سيئاته وأياديه : لقد عرفها فتاة فى إحدى الحدائق العامة مع أخيها الصغير فعطفه عليها دلّ متواضع وكبرياء تبتسم ، وأحبها منذ ذلك اليوم وراح يعيش فى وهم الأمانى ... واستطاع أن يلفتها اليه وأن يجعلها تهتم بأمره ؛ ومدت اليه خيط الرجاء فتعلق ، ومضت الأيام تقرب بينهما وتدنى نفساً الى نفس حتى أشعرتهما أنها كل شىء فى حياته ، وأنه كل شىء فى حياتها . وشاركته سعادةَ الأمل ، وأخذ يُعد العدة للأمر العظيم يوم تكون زوجه ، وأخذت تسابق الأيام فمنحته من ودها على غفلة الأهل أشياء فى إباء الراغب ورغبة المتأبى ؛ ولم تكن أيام الوصال على وتيرة ؛ فيوماً دلال ، ويوماً عتاب ، ويوماً يتنبه الرقيب من حيث يريد ويريد ... وهكذا راح الزمن يذكى فى صدريهما لواعج الشوق ، ويضرم لهيب الوجد — أربع سنين متوالية بين لهفة وشوق وأمل ؛ ثم زُفت اليه . لقد شعر يومئذ أن الدهر أتم عليه نعمته وأسبغ عارفته ، ولكنه أعطاها مَقادَته من اليوم الأول ، ولم يتلقّها إلا بتقديس وعبادة ، وظل بعدها فى العبادة والتقديس ! وإنها لتحب السيطرة والسلطان ، بعض ما فى دمها من طباع الشركس ؛ وإن فيه لطراوة ولِيناً من ضعف العاشق الذليل ؛ فأخذت تملى عليه إرادتها وهو كالكرة فى يد الصبى . ولم تجد فيه رجل أحلامها الذى قدّرت أن يكون ، فراحت تنتقص من

سلطانه وهى تتمنى أن يعاصيها ويتمرد على إرادتها فتشعر به زوجاً له مثل سيطرة الرجال . وكانت كلما راحت تستثير فيه نخوة الرجل استخذى لها وتلاشت إرادته ؛ لقد كان يجيد الغزل وحديث الحب ، ولكنه لم يكن يعرف كيف يملى إرادته ، ويُلوِّح للحب بالبغض ؛ وكان يعرف كيف ينزل عند رغبتها حين تريد ، ولا يستطيع أن يكون رجلاً حين يريد . . .

— ٢ —

ورأت كل حاجاتها لديه مقضية ؛ ووجدت نفسها الآمرة الناهية فى هذه المملكة الصغيرة ، حتى الرجل الذى كانت تخشى سلطانه وتهواه كان أطوع لها من بنانها . وراحت تبالغ فى مطالبها ، لا تقف عند حد ولا تنتهى الى غاية . وحين جاء الصيف رغبت أن يسافرا الى الاسكندرية فلم يجد فى نفسه قوة على العصيان وهو يعلم أن أكلاف الاصطياف هناك فوق مايتحمل مرتبه الضئيل . . وقضيا فى المصيف شهرين استمتعت فيهما زوجه بكل ما اشتهت من حرية وانطلاق ، وكان لهما فى نفسه لذع ومرارة . وأخذ الحب الذى كانت تحسه لزوجها من قبل يتلاشى رويداً رويداً ؛ لأنها بدأت تعنى بأشياء أخرى ؛ وصارهمها من دنياها ثوباً جديداً تختال به على صواحباتها ، أو ليلة ساهرة فيها متاع القلب والنظر ، أو سفرة الى هنا أو هناك تجتلى من مشاهدها أنساً وبهجة . ولم يكن يضن عليها بشىء . . ونسيت تدبير البيت وشئون الزوج ؛ فكانت تقضى نهارها زائرة أو طائفة بالبيوت التجارية والحدائق ودور اللهو ، وأخذت تنفلت من قيود المرأة المتزوجة قليلاً قليلاً ، حتى اطمأنت الى حريتها كاملة فى الغدوّ والرواح ، وفى السهر أيضاً ؛ وتاقت لأن تبسط إرادتها إلى ما وراء جدران البيت مؤمنة بجمالها وسلطانها على القلوب ! . . وألف شوكت أن يعود الى البيت فى النهار وأول الليل فلا يجد هناك غير الخادم تخلع عنه ملابسه وتهيئ له الطعام ، ولم يكن ليسوءه ذلك كثيراً ، فحسبه من الزوج الحبيبة أن تكون سعيدة هانئة ، وأن يستيقظ فى الصباح على نغمات من صوتها الندى الرقيق ، وأن يمسى ووجهها آخر ما يراه من دنيا اليقظة . ولكن الكرة مازالت تتدحرج ويخاف أن تبعد عن منال يمينه . . !

وعاد ليلة متعباً مكدوداً يلتمس الراحة فى البيت ، ودق الباب فلم يجب أحد ، وعاود الدق فلم يسمع غير الصدى يرنّ ثم يتلاشى فى مثل ضحكة ساخرة من فم امرأة . . . ترى أين ذهبت الخادم ، وأين زوجه الآن ؟ لقد تعودت الغياب عن البيت كأنما لا يعنيها منه إلا أن تأكل وتنام ! أليس له عليها مثل حق الأزواج ؛ فما لها لا تدرك عليها واجباً ولا تعترف له بحق ؟ . . وأخذ يذرع الطريق غادياً رائحاً ويداه خلفه ورأسه الى الأرض ، يمدّ بصره بين حين وحين يرقب الطريق . . ورأى زوجه مقبلة فى سرب من رفيقاتها تهتز أعطافهن فى فتنة مغرية ، ويجاهرن بالحديث عابثات ضاحكات . ورأته زوجه فقالت : « أنت هنا ؟ » ولم تزد ، وسبقته تفتح الباب وانصرف صواحبها . ولما اطمأن بهما المكان قال لها :

— « لقد ضايقنى الانتظار يا إلهام ، أين الخادم ؟ » . قالت :

— « الخادم ؟ لقد سافرت لترى أباها . ألم أنبئك ؟ »

قال وقد رسم الاستياء خطّين على جبينه :

— « وهلا قدرت أن أعود مبكراً فتكونى فى انتظارى ولا تتركينى بالباب ؟ ! »

ومالت عليه فطوقته بذراعها ويدها تعبث بشعره وعيناها تبرقان ، وقالت تداعبه فى لين وتكسُّر : « ليتك لا تغضب ياشوكت ، أنا أحبك ! » ثم كانت قُبلة نسى معها الغضب والعتاب . . .

وتتابعت أيامها من بعدُ بين غضب ورضى ، وأدركت إلهام أن زوجها يحاول أن يعود رجلاً وأن يبسط عليها سلطانه ، ولكن بعد أن عرفت من أين تناله وكيف تسلبه إرادته . . . ومرّ عام ، وصار شوكت أباً . هذا ولده عادل .

* * *

ودق الجرس فى فناء المدرسة ، فانفلت الغلام من بين يدى أبيه كما فرت سعادته من قبل . . !

أين هى الآن ؟ إنه مازال يحبها أعنف الحب وأرقه ، ولكنه قد فارقها إلى الأبد ! وآلمته الذكرى ، فأخرج علبة من جيبه فأشعل دخينة ، واعتمد بذراعه على حافة المقعد ، وأسند رأسه إلى راحته ، وزفر زفرة ، وتلوّت ثعابين الدخان صاعدة ، وراح يتابع الذكرى الأليمة :

لقد كافأته زوجه على حبه ووفائه وطاعته — بالسخر والتمرد والعصيان ! ليته استطاع أن يكون معها أصلب قناة وأغلب إرادة ، فلعله كان أحبّ إليها صلباً غلاّباً صاحب إرادة وعنفوان . . . !

إنه كان يحبها حباً بعيد الأمل ، ليس له حدود تحصره فى دائرة الممكن ، ولا حرية تطلقه وراء المستحيل ؛ فلما ظفر بها ضل الطريق إلى السعادة ، وراح يلتمس قلبها فهوى على قدميها . . !

وحين أراد أن يهيء لها سعادة الرضى فى جواره لم يعرف كيف يجعل إرادته تسبق إرادتها فيما تشتهى فيمنحها ما تشاء قبل أن تدعوه اليه آمرة مطاعة . . . !

ولو أن الحجاب بينهما فيما بين الخطبة والزفاف لم يكن فى حراسة التقاليد ، لتفاهم قلباهما على الود الكريم ، ووضعا الأساس لحياة الغد على غير جُرُفٍ هار من الوهم والخيال . . . !

لم يكن يومئذ يدرى أن المرأة تعشق الرجل المتسلط الذى يغلبها ويفوقها ، بقدر ما تحتقر الرجل الذى يترامى على قدميها فى ضعف وهوان ، ولو كان ضعف المحب وهوان العاشق . . . !

لقد عاشرته خمس سنين كانت معه فى البيت كضيف على ميعاد ، وكان حظ صواحبها منها أكثر من حظه ! وربما قضى الساعات فى البيت وحيداً ، وهى هناك تتنقل زائرة من بيت الى بيت ، فلم تكن تعرف دارها إلا يوماً واحداً فى الأسبوع ، هو يوم الاستقبال . . . ولقد كان فى البيت مرة وسمع بأذنيه أى الشئون يتحدث فيها النساء : حديث الأزواج ، وشح الأزواج ، وغفلة الأزواج ، ثم الأزياء والملاهى ولا شىء غير ذلك ! . . بل لعله رأى بعينيه ماذا يصنعْن يوم الاستقبال . لقد نقم على كثيرات من صاحبات زوجه ، وعاب عليهن سوء الأدب وقلة الاحتشام ، ولكنه لم يجرؤ حتى فيما بينه وبين نفسه أن يسىء الظن بأخلاق زوجه ، ولم يجرؤ أن يحدثها عما رأى وسمع ؛ خشية أن تلومه على استراق الحديث والنظر . . ! . . آه لو كان يدرى يومئذ أنها واحدة من هؤلاء حين تكون بعيدة عنه ، فلعله كان حينئذ يستطيع أن يردها الى الصواب !

— ٣ —

وطالت غفلته عن حديث الناس بسلوك زوجه ، حتى حين مرض بالاسكندرية صيفَ عام واشتدت به العلة ، وأمره الطبيب أن يعود الى بلده ، فأبت زوجه أن تعود قبل أن ينصرم الصيف ، وتركته يخلفها وحدها هناك على الشاطئ فى حراسة الشيطان ، تداعب أمواجا فى البحر وأمواجا فى البر ، لقد كان لها يومئذ رغبات نسيت فى سبيلها وفاء الزوجة وبر الأم ، فلم تعد إلا بعد شهر !

لم تهنأ إلهام بالحياة فى بلد زوجها على ما فيه من جمال وفتنة ، وحالت بعد عودتها امرأة أخرى ؛ فلم تعد تهتم باسترضاء زوجها ، تمحو غضبه بابتسامة الخداع وبهرج الكلم ، ومزقت القناع عن وجه عابس ، وكشفت صدرها عن ألم وضيق بحياتها فى كنف الزوج الحبيب ، وراح شوكت يستميلها فلا تزداد إلا نفوراً ، ويتحبب إليها فلا تبدى غير البغض والكبرياء . . . وآلمه ما تغير من أخلاقها ، وراح يحاسب نفسه على ما قد يكون أساء به إليها ، ويحصى ما قصر فى حقها وما اقترف ، فلا يبدو له إلا صفحات كلها حب ووفاء وتضحية . وأخفق فيما سعى إليه ولكنه لم ييأس .

وترامت اليه الأخبار بما يتحدث الناس من شأنها ؛ وكان آخر من عرف ... ياللهول ! وأفاق من وهم الحب . لقد مدّ لها أسباب الغواية وتركها تتدحرج حتى استقرت فى أعماق الهاوية وجذبته معها !

واستعاد رجولته ، ولكن بعد أن فقد من يأتمر بأمره ، وفارقها فى صمت ، عيوفا أبيّا ، ولكنه خلف قلبه هناك ... تحت وسادتها وبين الحشايا !

وكان له ما أراد ، ونقل من البلد الذى دفن فيه الشباب والحب والأمل ، ينشد العزاء والسلوان بعيداً بعيداً ؛ وقد أقسم ألا يكون له من بعدها زوج .

وهاهو ذا يعود بعد سنوات ليأخذ ولده يعيش فى حضانته ، بعيداً عن عار الخطيئة — عن المرأة التى كرهت أن يكون ولدها معها فيعلن للأصدقاء بوجوده أنها أمّ ... !

* * *

وصلصل الجرس وما يزال شوكت غريقاً يجاهد موجات الذكرى الأليمة فى يأس ؛ يأس المحب الوفى جوزى بحبه ووفائه غدراً وخيانة !

وحياه زميله الأستاذ مختار وهو يصيح : « أهلاً ، شوكت ، متى حضرت ؟ »

وهز يده بقوة ، وربت على كتفه بحنان ثم أردف :

— « إن صديقنا « أحمد » لموفق ، فقد كان يذكرك اليوم ويتمنى أن تحضر زفافه ، وقد حضرت . »

قال شوكت : « زفافه ؟ وماذا ترانى أصنع له فى زفافه ؟ »

ودهش مختار أن يتحدث شوكت كذلك وأجابه : « لا أحسبك نسيت ما كان بينكما من ود ؛ أفليس من حقه عليك أن تهنئه أن ظفر بالفتاة التى يهواها ، وإنك لتعرف أين كان أمله ! »

وابتسم شوكت فى ألم ، وقطب جبينه ، واسترجع كل ماضيه الأليم فى لمحة ، وقال لصديقه ساخراً : « وهل تراه ظفر بشىء يستحق التهنئة ، أم ترانى أعزيه . . . ! »

وتولى عن صاحبه وهو ممسك بيد ولده ، والأرض تجاذبه

إلى الخلف — إلى حيث يرى المرأة التى أحبها نخانته . ولكنه عرف كيف يكون رجلاً ، وكيف يقمع فى صدره ذلك الحب الذليل الذى نزل به إلى الهوان والعار . ومضى فى طريقه إلى البلد الثانى وكأنما كان يدوس بقدميه قلبه الدامى فيحس وخزاً أليماً فوق ما تخزه الذكرى وتؤلمه .

ومضت الأيام تسدل بينه وبين الماضى حجاب النسيان ، وهو يغالب هواه ويصارع نفسه ، حتى برىء من دائه . وأخذت ذكريات الماضى تتضاءل فى رأسه حتى أوشكت أن تتلاشى ، وانقشعت عن عينيه غشاوة العاطفة التى كانت تغلبه على عقله وتزين له أن يبيع بالحب كرامة الرجل .

وانقضت سنوات ثلاث ، ثم رأى نفسه وجهاً لوجه أمام المرأة التى كان يحبها أرق الحب فعاد يبغضها أعنف البغض ، ويبغض من أجلها النساء جميعاً . لقد أخفقت فيما سعت إليه ، فلم تظفر بالسعادة التى انطلقت وراء أوهامها وحطمت فى سبيلها عش الزوجية ، وحالت الثمرة التى كانت تتشهى حلاوتها مُرّةً كريهة المذاق حين عرفت منزلتها الحقيقية من نفوس المعجبين بها والمزدلفين اليها من الرجال ، لقد انفضّوا عنها جميعاً بعد أن ملّوها ، وراح كل منهم يلتمس لحظات سعيدة فى غرام جديد أبىّ ، يذوق فيه سعادة الظفر بالمغيب المجهول . . وتنكرت لها الحياة فعادت الى الماضى تستلهمه ، فاذا هى ما تزال تحب شوكت . . وذكرت فى النهاية الرجل الذى كان يحبها ، والذى كان يبيع من أجلها كل شىء ، فجاءت تسعى اليه معترفة تائبة . هيهات ! لقد أضلها السراب طويلاً ، فلما همت أن تعود الى المناخ كان الركب قد تحرك ، فلم تدرك غير الغبار يُقذى عينيها وتتكاءدها عقبات الطريق !

وأغلق الرجل دونها بابه ، ووقفت بينه وبينها الذكريات المؤلمة عن ماضيها وماضيه . لم تؤثر فيه دموع الندم ، ولم يعطفه عليها ما ناشدته الحب القديم ، فقد علمته من قبل كيف يكون بليد العاطفة ، فبقى معها بليد العاطفة ، وعلمته ألا يؤمن بالحب ، فأثبت لها أنه لا يؤمن بالحب ، وعلمته ألا يثق بوعود امرأة ، فأكد لها أنه أبداً لن يثق بوعود امرأة .

وحين عادت المسكينة امرأة ذات قلب . . . عاد المسكين رجلا بلا قلب ! . ؟

محمد سعيد العريان

٣ ـ سافو

لأوجيه اميل

ترجمة الأستاذ محمود خيرت

كاوودال — (ينادى) رِهى . رِهى

لابودرى — يا صاحب المطعم

الجميع — أنت يارجل

(يظهر صاحب المطعم)

كاوودال — أسرع فلقد قتلنا الظما

صاحب المطعم — أهلا أهلا بأسيادى (وكأنه يعرف كاوودال)
سيدى كاوودال . . . ما أطيب هذه الفرصة تفضلوا .
فاجلسوا عند هذه البراميل أو تحت هذه الشجرة الظليلة

كاوودال — نبيذك الطيب أولاً !

لابودرى — الأبيض ؟

كاوودال — أصبت

صاحب المطعم — كما تشاؤون . والطعام ؟

كاوودال — عند المساء متى عدنا ، ولكن ماذا عندك منه

صاحب المطعم — كل ما تشتهون

كاوودال — شواء مثلا ؟

صاحب المطعم — نعم . وفرختان !

لابودرى — حسناً

صاحب المطعم — وضلع

كاوودال — لا بأس

صاحب المطعم — ثم . . .

الجميع — هذا يكفى

كاوودال — (منشداً) ولكنْ أيها الشيطان

لابودرى — اذا أهملتَ فى الألوان

آخر — والمزاتْ

ثانٍ — والسَّلطات

ثالث — وحذار أن تنسى كذا البصطرْمه

رابع — معها والا فالجزاءْ

صاحب المطعم — « الصَّرْمه »(١)

(ضحك عام)

(١) رصدنا هذا اللفظ العامى المألوف لنستقيم القافية سيما وأن المقام مقام هزل

obeikandl.com